مفكرة

هـذا القـلم المتـمرّد ...!

ملاحقة ، اضطهاد ، تجميد فصل ، اعتقال .

تلك هي الحلقة الدائمة من المعاناة التي يعيشها الكاتب الحر في وطننا العربي . هناك من احترفوا خنق الكلمات في الصدور . هناك من يحقدون على اصحاب الضمائر . هناك من يتحسسون موضع مسدساتهم اذا سمعوا كلمة « الثقافة » . هناك من يكرهون الحقيقة والصدق .

ولذلك عانى المئات من الكتاب والصحفيين في مجتمعات الكذب والنفاق والتعسف . والصحافة مهنة خطرة تحتاج الى جهد كبير لكي لا يسقط الشرفاء في مغرياتها وينساقوا وراء مغرياتها وأضوائها ، وخاصة في بلد كمصر .

هناك تستطيع ان تصل الى أعلى المناصب الصحفية والى أعلى سلم المرتبات ، وان تصبح « نجما » مشهورا مستقرا في حركة الافلاك . كل ذلك ممكن بشرط واحد . ان تتحول الى بوق للحاكم ومكبر لصوته . ان تعرف كيف تكيف افكارك لكي تتلاءم مع رغبات واهواء الحاكم وان تستلهم ما يرغب في أن تكتبه .. قبل أن يقوله . أن تعرف كيف تبرر له سياساته و .. حماقاته بأكثر مما يعرف هو ، أن تخرج كل ما في جعبتك من حيل ، وتلعب دور الهواة لكي تحرف الانظار عن مشكلات الناس الحقيقية الى قضايا أخرى تافهة حتى لا يزعجوا الحاكم ويصبحوا مصدرا لاقلاق راحته .

ان تتجرد من ضميرك وتعرف كيف تصف الديكتاتورية بانها ديمقراطية شعبية ، وان تصف الخيانة بانها قمة الوطنية ، واذا رأيت شعبك يعاني من الجوع يجب أن تقول انه ينعم بالرخاء والرفاهية !

ان تنس انك انت ، وتتقمص روح الحاكم فتفرح لفرحه وتغضب لغضبه . ان تعرف كيف تثبت ولاءك بكتابة التقارير عن العصاة والمتمردين ، وتحذر من خطرهم على الامن و « السلام الاجتماعي » .

اذا لم تكن من هؤلاء .. لن تعرف الاستقرار في حياتك .

ولذلك كان ابراهيم عامر واحدا ممن واجهوا العواصف والزوابع. كان كاتبا جادا لا يعرف كيف يمارس دور المهرج والحاوي ، ولا يطبل أو يزمر للافاقين ومغتصبي السلطة .

وأصدر الحاكم في شباط ١٩٧٣ قراره بتحطيم اقلام عشرات من الكتاب الصحفيين المصريين . ولكن ، أين هم الحكام الاقزام الذين استطاعوا أن يقصفوا قلم كاتب حر ؟ أرض العرب واسعة . القضية واحدة والمصير واحد . وجاء ابراهيم عامر الى بيروت . وبينما كان لبنانيون يتزاحمون على الطائرات للنجاة بانفسهم من لهيب المعارك ، كان ابراهيم عامر يعود اليها من رحلة صحفية في الخارج .. والاشتباكات في ذروتها . هنا ، في لبنان ، موقع الصدام بين حركة التحرر العربي ـ الفلسطيني وبين القوى المعادية . ومهما اشتدت مخاطر البقاء . فلم يعد هناك مكان اخر لهؤلاء الذين وحدوا بين مصيرهم الشخصي ومستقبل التحرر العربي والثورة الفلسطينية .

وقبل ان يسقط ابراهيم عامر شهيدا قال كلمته : مع الثورة حتى النهاية ، ضد المحاولات المحمومة لتحويل مصر الى « اسرائيل اخرى » ، ضد اتفاقية سيناء ومؤامرات تصفية القضية المقدسة ، تحذير من قواعد التجسس الاميركية في سيناء ، عاطفة حميمة ازاء قوى اليسار المناضلة في مصر والوطن العربي والعالم .

ورحل ابراهيم بالطريقة التي كان يتمناها : واقفا على قدميه .. مع العمال .. في المطبعة .. يدافع عن الكلمة ، وينشرها على الناس . وكان استشهاده ردا عمليا على هؤلاء الذين حاولوا أن يرغموا قلمه على الصمت ولكن هذا القلم لم يصمت طالما ظل قلب صاحبه يخفق ، ولن يصمت حتى بعد رحيل صاحبه ، فهو يعرف رسالته .

■■

محمد عثمان